الفصل الأول

التفتيش عن إيتيل

المحادثة الأولى مع (م. إ. ارتامونوف)

في أحد أيام ربيع عام ١٩٥٩م دخلت قاعة المطالعة في مكتبة الأرميتاج ورأيت البروفسور م. إ. ارتامونوف يتفحص خريطة سهوب الكالميك.

«كم كيلومتراً يساوي الفرسخ»؟ سألني في وجوم فاستذكرت قيمة متعارفاً عليها من الجميع وهي ٥.٥كم، ولكن البروفسور تمتم «ما صَحَّتْ» ودعاني إلى الخريطة، يتلخص الأمر بالتالي: وصف الملك الخزري يوسف في الرسالة إلى حسداي ابن شفروتو التنقل السنوي الصيفي لبيته - غادر عاصمته إيتيل الواقعة على ضفة الفولغا في الربيع وانتقل إلى الجنوب إلى نهر فه - ده - شان (فيديشان) ثم ارتحل شمالاً كما يبدو هرباً من حرارة الصيف في المناطق الجافة المجاورة لقزوين ولكنه لم ينتقل إلى بيته وإنما إلى نهر بوزان المطابق للدون ومن هناك عاد إلى ذويه في إيتيل الواقعة على بعد ٢٠ فرسخاً من بوزان[١] ويخبر الملك يوسف حالاً عن المسافة من عاصمته إلى حدود مملكته: إلى الشرق حتى غيركانسك أي بحر قزوين ٢٠ فرسخاً وإلى الجنوب حتى نهر أوغ - رو ٣٠ فرسخاً وإلى الشمال حتى نهر بوزان المذكور. و «حتى منحدر نهرنا إلى بحر غيركانسك يعني حتى اقتراب منعطفي الدون والفولغا في الموقع الحالي لقناة الفولغا - الدون ٢٠ فرسخاً. وبهذا الشكل تحسب كل المسافات من العاصمة إيتيل. وبالتالي لكي يعثر على مكان العاصمة رسم م. إ. ارتامونوف على الخريطة مثلثاً مسنداً رؤوسه إلى نهر الدون (بوزان) والفولغا (إيتيل) والتيريك (أوغ - رو) بطول أضلاع تتناسب طرداً مع المسافات المعطاة.

١- في الصيغة (النص) المختصرة للرسالة - المسافة من بوزان إلى عاصمة خازاريا - إيتيل ٣٠ فرسخاً.

obeikandl.com

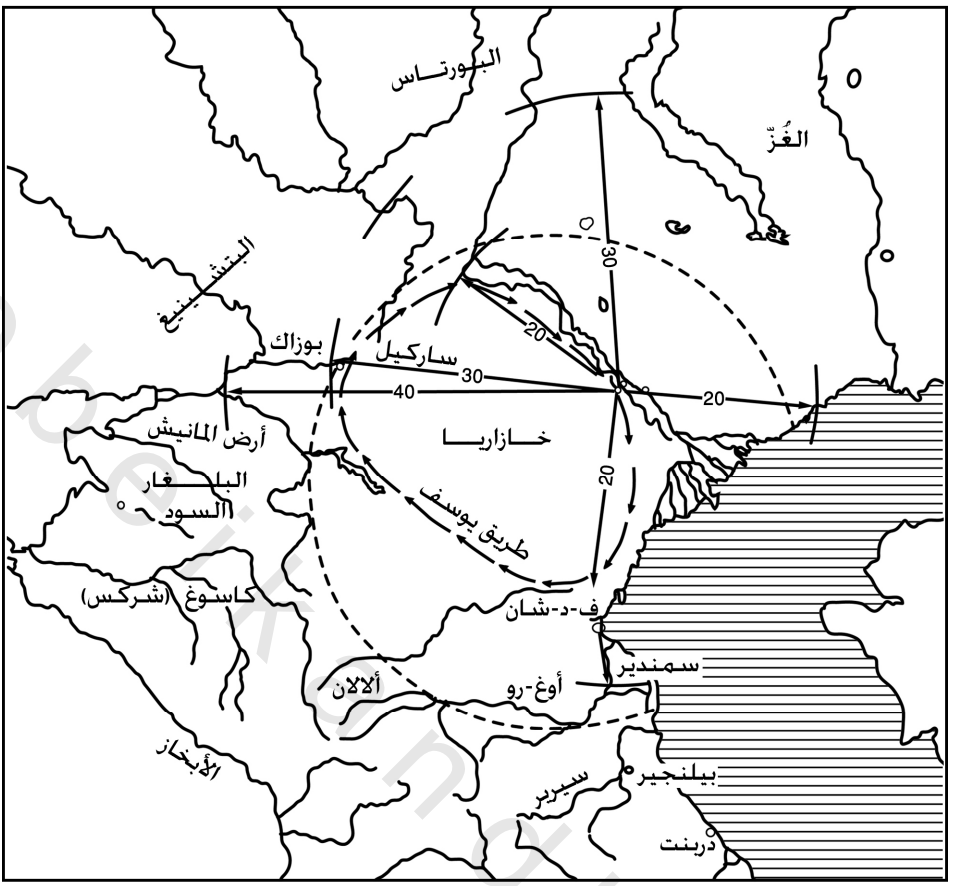

خازاريا في القرن العاشر الميلادي (حسب معطيات رسالة الملك يوسف)

إلا أن تحديد طول الفرسخ بـ ٥.٥كم تناقض مع رسمه، فإذا اتخذ هذا الطول أساساً وأسندت رؤوس المثلث إلى الدون وفرضاً حتى لا إلى التيريك وإنما إلى الكومو والمانيتش (أسماء أنهار - المترجم) فإن عاصمة الخاقانية الخزرية يجب أن تظهر في السهب شمال الكامليك بالقرب من بحيرات ساربينسك. وهذا يتناقض أولاً مع المصادر التي تضع إيتيل على ضفة الفولغا وعلاوة على ذلك يضيع نهر فه - ده - شان (فيديشان) الكبير الواقع على بعد ١٠ فراسخ إلى الشمال من النهر الحدودي أوغ - رو وبدا أن المسألة لا حل لها وهذا بالذات ما حمل أستاذي على الاستغراق في التفكير.

وفي الوقت نفسه تداعى إلى ذهني فجأة من الزمن البعيد في الشباب منذ عام ١٩٣٢م حيث اتفق لي أن عملت في طاجيكستان مستطلعاً لمرض الملاريا وتلخص

العمل في أني أعثر على المستنقعات حيث يتكاثر البعوض وأحملها على الخريطة ثم اسمم المياه (بأخضر باريس) وتتناقص كمية البعوض لدرجة ما، ولكن الناجي منها كاف تماماً لنقل العدوى ليس فقط لي وإنما لكل سكان المنطقة. إلا أنني استفدت من هذا العمل فائدة قصوى لأني حفظت عن ظهر قلب شفهياً اللغة الطاجيكية المحكية لأنه اتفق لي أكثر من مرة عند تحديد المسافة أن لجأت إلى السكان المحليين وهكذا استوعبت طوعاً أو كرهاً قياس الأطوال الأسيووسطي - الشاكريم.

وكان من غير الممكن تحديد طول الشاكريم بالأمتار: فهو تارة طويل وتارة أخرى قصيرة. ولكن يظهر انسجام دقيق في التبدلات فإذا صعدت الجبل أو خضت في المستنقع يكون الشاكريم قصيراً وإذا نزلت الجبل أو سرت في طريق جيدة فهو طويل، وكل القيم الأخرى تقع بين هذين الحدين الأعظميين، وفي الحقيقة كان الشاكريم مقياساً لا للطول وإنما للجهد الذي يجب على الشخص أن يبذله لكي يصل إلى الهدف المطلوب ولا يمكن عدم الاعتراف بأن مثل هذا النظام في العد كان ملائماً جداً للسكان المحليين بالرغم من أنه غير صالح تماماً للرسم على الخريطة (العمل على الخريطة) وفي الوقت نفسه خطرت في رأسي فكرة وهي أن «الشاكريم» الطاجيكي هو ليس إلا «الفارسانج» الفارسي (الصيغة المعربة - الفرسخ) وعندئذٍ يجب الأخذ بالحسبان لا الطول المجرد وإنما قابلية المرور - الترحل.

وحسب الأوروبيون طول الفرسخ في ظروف تكوين الأرض الوعرة للهضبة الإيرانية أما في السهوب المجاورة لبحر قزوين المسطحة كالطاولة فيجب أن يكون أكبر بكثير، فقسنا حالاً مسافات المثلث الذي أنشأناه وظهر أنه عندما يكون طول الفرسخ الخزري ١٠كم يجب أن يقع نهر أوغ - رو - التيريك ونهر بوزان - الدون، وفه - ده - شان (فيديشان) - كوما وإيتيل على بعد واحد من ضفاف الفولغا بين قريتي إينوتاييفسك وسِليترِنوبي.

وبقي أن نبرهن أخيراً: على أن الفرسخ ليس مقياساً محدداً للطول في الحقيقة وإنما هو مقياس تقريبي يتعلق بتكوين الأرض وحالة الطرق ولا يوجد في المراجع الأوروبية إشارة إلى ذلك، ولكن الأمر وجد منفذاً في الرواية الفارسية «رحلة إبراهيم - بك» من القرن التاسع عشر لمؤلفها زين العابدين مرغاي حيث تصف انطباعات الوطني - الفارسي المتأورب (نحت لكلمة Europezerovanoe الروسية - المترجم) الذي عاش في الإسكندرية وزار وطن أجداده. فهو يصف فارس بألوان قاتمة للغاية ولكن في بعضها الآخر موعظة وهي أن بغال العربات (الارباكيش) الفارسية همجية حقاً بحيث إنه لا يمكنها أن تقيس حتى المسافات، فالطريق الطويل والطريق القصير عندها يساوي «فرسخاً واحداً».

وساعد هذا الرأي على حل المسألة وسرعان ما عرض علي م. إ. ارتامونوف الذهاب إلى ضفة الفولغا والتفتيش هناك عن عاصمة خازاريا التي حسب مكانها بدقة كافية. ووافقت بحماسة وحددت البعثة في أيلول ١٩٥٩م.

وبحسب أوصاف الجغرافيين العرب والفرس ورسالة الملك يوسف كانت إيتيل مدينة كبيرة تقع على جزيرة ضيقة طويلة، وعلى كلتا ضفتي الفولغا وكان الشاطئ الأيمن للجزيرة موصولاً بجسر أما من الأيسر فكان من الضروري الانتقال بالقارب. وكانت أبعاد المدينة عند المؤلفين المختلفين غير محددة إلى حد ما، ولكن الجميع يشيرون إلى أن المدينة كانت واسعة ومزدحمة بالناس ومع أن المباني الآجرية باستثناء القصر الخاني (الملكي) لم تكن موجودة فقد أشير إلى أنه كان في المدينة الكثير من الأشجار وأما السور الذي يحيط بالمدينة فقارنوه حتى بسور أورغينيتشا، فمن ناحية كان عدد الدلائل والبراهين الموثوق بها كافياً تماماً، ولكن من ناحية أخرى من غير الواضح كيف يمكن أن تبقى مثل هذا الآثار غير ملحوظة في الوقت الذي حتى بقايا الأخشاب لا يمكن أن تغيب عن عين عالم الآثار الحادة النظر (الثاقبة). وضفتا الفولغا مأهولتان بكثافة، ولو كانت مدينة واقعة هناك لكان من المحتمل أن عثر عليها منذ زمن بعيد. إلا أن آراء م. إ. ارتامونوف كانت مقنعة للغاية وبدا أنه كان من الضروري السفر إلى المكان لاختبارها.

رحلة عام ١٩٥٩ والإخفاق الأول

غادرت في الأول من أيلول ١٩٥٩م البعثة الأثرية الاستراخانية بقوام ليف نيقولاييفيتش غوميليوف - رئيساً للبعثة، وإسطفان آردي وفاسيلي ديميتريييفيتش بيليتسكي - زملاء في البعثة وانضم إلى البعثة في موسكو طالب الدبلوم من كلية التاريخ في جامعة موسكو الحكومية اندريه نيقولاييفيتش زيلنسكي وقبلناه بوظيفة عامل وكنا سعداء جداً فيما بعد لأنه ظهر عاملاً ماهراً ورفيقاً جيداً وك «ميدانيين» حقيقيين بدأنا بإجراء أولى ملاحظاتنا من النوافذ ونحن ما زلنا بعد في قطار استراخان، وبقي الخريف الشمالي المبكر وأوحاله وأمطاره الخفيفة خلفنا وحالما وصلنا إلى الفولغا تناغمت السماء الزرقاء بطريقة ما على غير العادة مع لون الأعشاب الجافة الشاحبة الضارب إلى الصفرة المغطاة بطبقة رقيقة من الغبار، ومن الغريب أنه لم يظهر لا العشب الذابل ولا الغبار كئيبين ولا منقبضين. وكان كل شيء العشب والغبار والجمال السوداوية (الميلانخولية) مشبعاً كلياً بالشمس والصفصاف بأشجاره القوية وأوراقها الخضراء الباهتة الرفيعة التي تهتز بتأثير هبات نسمات الريح الخفيفة والأعشاب السهبية الغضة المترعة دفئاً وغذاءً في المراعي الشمالية الكثيرة المستنقعات والتي كانت كافية لتغذية وإعاشة الحيوانات الأليفة والبرية. وفي هذا الوقت ذاته بدأت أتدرب على «قراءة أديم الأرض» هذا الفن الذي يحدد المصير المقبل للبعثة. وفي استراخان

تأخرنا فقط بسبب السفينة التي أنزلتنا في صباح ٨ أيلول في مرسى قرية اينوتاييفسك على الضفة اليمنى لنهر الفولغا.

ومن الضروري الإشارة إلى أن الفولغا يجري حتى مدينة فولغاغراد بمجرى واحد ضخم وبعد ذلك حالما ينعطف إلى الجنوب - الشرقي يتفرع إلى مجريين: الغربي وهو الفولغا بالذات والشرقي هو الآختوب ويقع بين كلا المجريين شريط طويل من اليابسة ينغمر أثناء الفيضانات الربيعية وهذه الجزيرة الخضراء المغطاة بالمروج وأجمات الصفصاف تتنافر بحدة مع السهب الجاف على الضفة اليمنى لنهر الفولغا، حيث تبرز عند التربة الطفالية الرملية السمراء المشققة فقط شجيرات من النباتات الذاوية. وبالرغم من ذلك فإن جميع القرى تقع على الضفة العالية للفولغا لأن الفيضانات الربيعية تدمر أي بناء مقام على الأرض التي تغمرها مياه الفيضان. ولذلك لم نعر اهتماماً للضفة المقابلة الساحرة الخضراء ووجهنا المسالك إلى الشمال والجنوب والغرب أملاً بالعثور على آثار متاريس (أسوار) قلعة إيتيل أو على الأقل على قِطع من الأواني التي كسرتها النساء الخزريات. ولكننا لم نعثر على أي شيء! حتى على خصائص تكوين الأرض التي تتفق مع وصف الجغرافيين العرب. وبعد ثلاثة أيام من العمل صار واضحاً أن العاصمة الخزرية لم تكن على الضفة اليمنى لنهر الفولغا[1]! ولكن هذا لم يكن إخفاقاً بعد! وكان من الضروري الانتقال للجهة الأخرى لإجراء التنقيبات القادمة ولكن العبور باتجاه مباشر كان مستحيلاً. فعرض الأرض التي تغمرها مياه الفيضان في هذا المكان ١٨كم ولا يوجد طريق عبرها واضطررنا إلى الانطلاق بالباص إلى قرية سيروغلازكا ثم انتقلنا بالقارب عبر مجريي: الفولغا ونهر الآجر ووصلنا إلى طريق السيارات على الضفة اليسرى لنهر آختوب.

وهنا وجدنا أنفسنا كأننا في بلاد مختلفة تماماً، صحراء رملية تمتد شرقاً وكثبان رملية عالية اقتربت من ضفة النهر وشمخت كالجبال ليس بعيداً عن السفوح الجرداء والجروف الساقطة للتلال الشاطئية التي تحد النهر، ولم يكن هنا فراغ كسهوب الكاليك البكر، بل على العكس - تنفس الماضي البعيد من دون وجود الناس، وهذا الشعور معروف عند كل عالم آثار خبير ولا يمكن وصفه أو ترجمته، ووجود اللقى يتحسسه سطح البشرة كله ولكن ذلك ليس دوماً تلك اللقى التي يسافر من

١- أكدت نتيجة التحقيق الأولية أن ضفة الفولغا الحالية قد تشكلت منذ زمن قريب بواسطة الجرف فمنذ ألف عام مضت كان هنا سهب غضاري رملي ذو تكوين أرضي غير مجزأ.
ولم تكتشف لا آثار استيطان ولا حتى كسرات من الأواني المحطمة حول إينوتاييفكا والأكثر من ذلك لما نجحنا في السنة التالية اكتشفت بالقرب من هذه القرية في حافة تل غير مرتفع عظام مكشوفة لإنسان: كان الهيكل العظمي نظيفاً وظهر أنه لمحارب - سرماثي وكان بقربه سيف حديدي ووعاء. فلو قامت فوقه (أي التل) مدينة كبيرة لما ظل قبر على سطح الأرض إلى زمننا هذا.
وربما تأكد أن إيتيل لم تقم هنا ففي الأسفل عند قرية سيروغلازكا حيث مقدار جرف الضفة أقل وجدت أنواع مختلفة من الفخار في حافة الضفة ومجروفات الحفر. وهذا المكان كان مأهولاً في الزمن القديم ولكن لم يكتشف لا سور ولا بقايا مبانٍ وهيئة تكوين الأرض لا تتفق مع وصف إيتيل.

أجلها عالم الآثار. فنحن صادفنا بكثرة كسرات أوعية حمراء اللون ومشوية جيداً ومصنوعة بدولاب الخزاف ومطلية أحياناً بالميناء اللازوردية أو الخضراء، وكانت تلك بقايا السكان التتر من القرون ١٣-١٥م في منطقة تخوم عاصمة خانات القبيلة الذهبية الرائعة ساراي باتو - خان[1] وهذه المدينة - واحدة من عواصم أوروبا الشرقية - كانت واسعة وتصادف آثار البيوت لمسافة ٥كم بالعمق ابتداءً من النهر و ٧كم تقريباً على طول ضفة نهر آختوب. وتبين أن القسم الأكبر من المباني قد فكك منذ القرن السادس عشر الميلادي، وراح الآجر لبناء كريملين استراخان وبقي إلى الآن فقط الأساس وحطام الأوعية الضخمة من طراز الامفورة (راجع التوضيح السابق - المترجم) المغروسة في الأرض والتي استعملت مستودعات للحبوب. وفتشنا ضفة آختوب كلها بدقة ولكننا لم نعثر على أيّ آثار خزرية أو لو حتى على الفخار التيوركي الغليظ (السميك) الطري المشوي بصورة سيئة من الفترة ما قبل التترية في القرون ٧-١٠م. إلا أن ذلك الاطمئنان الذي لقيناه على الضفة اليمنى لنهر الفولغا لم يبدُ بعد أيضاً فالرمال المنقولة بالرياح لا يمكنها أن تستمسك بكسرات الفخار على السطح فهي لا محالة ستغطس إلى التربة القاسية وتستقر تحت الكثبان وتحفر الرياح أحياناً تجاويف عميقة وهناك يمكن العثور على الكسرات المغربلة (ولكن هذا من عمل المصادفة) وربما يوجد في عدة أمتار من ٥-١٠ ركام من الكسرات التي تلقي الضوء على أسئلتنا، ويمكن أن لا يوجد هناك أي شيء ولكن تحت جبل من الرمال لا يظهر أي شيء، ولذلك لا يجوز الخروج بنتيجة سلبية. وهذا يعني عموماً لا شيء، وهذا أسوأ شيء. وفي ذلك الوقت عند إخفاق التنقيبات جلست إلى ضفة النهر مستغرقاً في التفكير وخيل إلي أني أخرق!

كيف يسكن الناس إذا لم تدعهم الحاجة الزائدة على الضفة العالية حيث كان من الصعب انتشال الماء من النهر؟ أليس من الملائم بكثير السكنى بقرب الماء على الضفة الأخرى لآختوب حيث في الأرض الواسعة التي تغمرها مياه الفيضان نمت الصفصافات غير العالية الجميلة جداً، وهل صحيح أن الأرض تنغمر كلها في أوقات الفيضانات الربيعية؟ أليس هناك أماكن مرتفعة صالحة للعيش؟ وهل يرتفع النهر دوماً هكذا كما في الوقت الحاضر؟ في الوقت نفسه اتخذت قراراً لا يتفق كلياً مع وجهة نظر التنقيب الأثري العادية - لقد بدا التنقيب عن المدينة في الأرض التي تغمرها مياه الفيضان التي خلال المئتي عام الأخيرة لم يبنِ أحد فيها ولا بيتاً واحداً لأنه في كل ربيع تتدحرج خلال هذه المروج البديعة أمواج الفولغا الهائجة.

وسمح رئيس سوفييت القرية بلطف باستخدام قارب صيده وتغلبنا بسرعة غير منتظرة على التيار القوي عابرين إلى الضفة اليسرى لآختوب، وسرنا ضد

٢- السراي الأولى (القصر) التي بناها باتي تقع بالقرب من قرية سِليترِنويي والثانية بناها الخان بركِه إلى الأعلى من الفولغا.

التيار فاحصين كل متر من الأرض. وكان أول ما صادفناه تلاً رملياً مرتفعاً إلى حد ما انتصب على قمته بيت صغير - مدجنه. وكان البيت بحالة جيدة وهذا يعني أن الفيضانات لم تؤذه وكان الأهم على كل حال ليس هذا وإنما التل الذي كان من منشأ ريحي (مكون بسبب تأثير الرياح).

وكان الرمل الذي يكونه محمولاً من وراء آختوب ولسبب ما سقط فقط في ذلك المكان وحده، وذلك يمكن أن يكون فقط في حالة واحدة. وهي إذا قام في مكان التل في غابر الزمان جدار أو حاجز آخر بحيث تتشكل خلفه دوامات (زوابع) هوائية في المكان الذي أسف (نزل) فيه الرمل، أما في جميع الحالات الأخرى فتحمله الريح إلى أبعد من ذلك إلى الغرب. وبعد أن وضعنا علامة على ذلك المكان تحركنا إلى أعالي النهر ضد تيار آختوب.

ولحسن حظنا طفح بحر الفولغا غرادي في عام ١٩٥٩م بالماء وكان مستوى آختوب أدنى من المعتاد ولذلك تعرى شريط واسع (نحو ٢٠م) عند أسفل ضفة واطئه شديدة الانحدار، واستعرضنا الضفة نفسها كمقطع جيولوجي فإلى الأعلى عثر في الضفة فقط على كسرات تترية عادية، ولكن على الشريط الجاف بدأت تصادف كسرات تترية من الفخار اللين الغليظ (السميك) المشوي بصورة سيئة من القرون ٩-١١م ولم يكن هناك أيّ إمكانية لتحديد كيف ظهرت هناك. هل نقلت جرفاً بالماء؟ وهل استقرت مع الضفة سوياً؟ وإذ - بلقية وهي: قطعة من القرون ٩-١١م برزت من الضفة المجروفة مؤرخة بدقة الطبقة التي رقدت فيها وفوقها ٢.٣م من الرواسب النهرية التي تشكلت بالتالي خلال السنوات الألف الأخيرة، ولذلك لم تستطع القطع الصغيرة أن تتخلل عبر الطمي المرصوص، وإذا كان الأمر كذلك فإن كل تنقيباتنا على السطح هي عقيمة لأن المنسوب الذي يهمنا موجود على عمق ٢.٣م. وبقي علينا فقط شيء واحد - وهو فحص تكوين هذا القطاع وتحديد هل تتفق صورته مع أوصاف الأرض من القرون الوسطى حيث كانت قائمة عاصمة خازاريا.

تذكر أوصاف القديمة: جزيرة طويلة مع قصر الخاقان، وقناة ضيقة من الغرب لدرجة أنه يمكن أن يطرح عليها جسر من الأعلى، ونهر عريض من الشرق. فما الذي شاهدناه في القطاع الذي فحصناه؟ يمتد على طول ضفة آختوب اليمنى سلسلة عالية يقع عند نهايتها التل الرملي الذي وصفناه - المدجنة وعند نهايتها العليا - تخوم «غابة القشة (نوع من السعادين - فتصير غابة السعادين - المترجم» التي لا تنغمر حتى أثناء الفيضانات العالية، وعرض السلسلة الآن نحو ٧٠م ولكنها كانت في الماضي أعرض لأن آختوب يجرفها سنوياً ويحدّ هذه السلسلة الآن من الغرب مجرى نهر قديم جاف وغير عريض (نحو ٥٠م) وعندما يجري النهر كان يمكن أن يقام عليه جسر بوسائط القرن ١٣م وآختوب الذي يحد السلسلة من الشرق عريض ويمكن عبوره فقط بالقارب، والتل الرملي نشأ في مكان البناء الحجري المتهدم. أما المباني الأخرى التي أقيمت من الخشب واللباد وكانت واقعة على أرض الغمر الحالية فقد دمرت بأمواج النهر عند

ارتفاع مستواه وتدل عليها طبقة الطين الطميية التي سماكتها ٢-٣م. فلو كانت المدينة هناك لكانت دمرت من دون آثار وحتى الكسرة اللقية التي في طبقة حافة الضفة - هي مصادفة سعيدة وإلى جانب ذلك لا يوجد ولا في أي مكان من مجرى آختوب إلى حد الدلتا لقى أخرى أو حتى تكوين أرضي مشابه وكنا قد حددنا هذا لاحقاً في عام ١٩٦٠م عندما تغيرت طبيعة وأسلوب التنقيب تغيراً جذرياً وهكذا نحن وجدنا المكان الذي لم تكن فيه إيتيل في وقت من الأوقات ولكن أين اختفت حتى أنقاضها.

ولكن رغماً عن ذلك ما من عالم آثار واحد لا يعتبر أن البعثة ناجحة بالاعتماد على العودة بالآراء والاستنتاجات وإنما بالأشياء كالهياكل العظمية ومخططات الآثار أما اللقية الثمينة فكانت فقط كسرة مستخرجة من طبقة، وبهذا الخيط الرفيع تقرر إما حل عقدة المسألة الخزرية المعقدة وإما الإقرار بإخفاقها وعدم السفر أكثر إلى مجرى نهر الفولغا الأسفل.

المحادثة الثانية (مع ف. ن. ابروسوف)

عند العودة من البعثة اطلعت على المؤلفات الخزرية الضخمة ووجهات النظر المتشابكة المتناقضة والاستنتاجات التي لا أساس لها إلى حد معين.

وكان هناك أمر واحد واضح وهو - أن الآثار الخزرية لم يعثر عليها أحد وليس معروفاً أين يجب التنقيب عنها؟

ولكن العلم يتطور ليس فقط في مكتب هادئ وإنما في هرج ومرج (ضوضاء) البعثات أيضاً فهناك فقط تختبر الأفكار وتحمل على الورق، الأهم هو معاشرة العلماء من مختلف الاختصاصات والمناقشات التي تندلع أثناءها شرارات التفاهم ومنها تلتهب نيران الأبحاث المثمرة، ومثل هذه الشرارة ومضت في عيني العالم الاختصاصي في علم المياه العذبة وبيولوجيا (علم أحياء) النباتات والحيوانات المائية ف. ن. ابروسوف لما سمع بتأريخ طمي مجرى نهر الفولغا الأسفل الخزفي بالقرن العاشر الميلادي «أنت نفسك لم تدرك أهمية لقيتك» هتف بصوت عالٍ كاشفاً لي عن فكرته التي لم يبق لإكمال تجسميها إلا شيء واحد - وهو الترتيب الزمني الأكيد. وتلخصت بالتالي:

تأتي الرياح الدافئة الرطبة إلينا بالأعاصير (المنخفضات الجوية) من المحيط الأطلسي وتتدفق بانفراغات الضغط الجوي المنخفض الواقعة بين النهاية العظمى والصغرى القطبية والاستوائية، وتعلق فوق القطب الشمالي قبعة ثقيلة من الهواء البارد تحد من الشمال طريق المنخفضات المندفعة إلى الشرق، وفوق الصحراء

يرتفع كذلك برج جوي يتشكل على حساب دوران الأرض ومتحرك خلافاً للقطبي. ووفقاً لدرجة فعالية الإشعاع الشمسي تتمدد النهاية العظمى إلى الشمال وتزيح انفراغات الضغط المنخفض التي تحرك المنخفضات إلى الشرق وعند ذلك تظهر إزاحة طرق المنخفضات بعدة مئات وحتى آلاف الكيلومترات ويحتمل حدوث ثلاثة تجمعات مطرية.

١- عندما تكون الفعالية الشمسية منخفضة نسبياً تنتقل المنخفضات فوق البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود وفوق القفقاس الشمالي وكازاخستان وتحجزها قمم جبال ألطاي وتيان - شان، وتسقط المياه بشكل أمطار. وفي هذه الحالة تروى السهوب وتعشوشب وتنمو الأعشاب بالصحارى ويمتلئ بالمياه البلخاش والأورال الذي يتغذى بأنهار السهوب، ويجف بحر قزوين الذي يتغذى بنسبة ٨١% من مياه الفولغا وتصبح الأنهار ضحلة في الشريط الغابي وتنمو الأعشاب في المستنقعات وتتحول إلى مروج وتواجه شتاءً قارساً قليل الأمطار، أما صيفاً فيسود القيظ. وفي الشمال يتجمد بشدة البحر الأبيض وبحر بارنتس ويترسخ الجليد الأبدي ويرتفع مستوى بحيرات التوندرا وتتسلل أشعة الشمس خلال الهواء البارد ويسخن سطح الأرض صيفاً (إذا لم تكن غيوم - يكون التشمس أعظمياً). ولعل هذا هو الوضع المثالي لنمو قوى الإنتاج في مناطق القارة الأوروآسيوية.

٢- ولكن هذا النشاط الشمسي يتقوى وتتزحزح جبهة المنخفضات إلى الشمال وتمر فوق فرنسا وألمانيا وروسيا الوسطى وسيبيريا، عندئذٍ تيبس السهوب ويضحل البلخاش والأورال ويتضخم بحر قزوين ويتحول الفولغا إلى سيل عكر عاصف وتصبح غابات ما بين نهري الفولغا - اوكسكوي أرضاً مستنقعية.

obeikandl.com

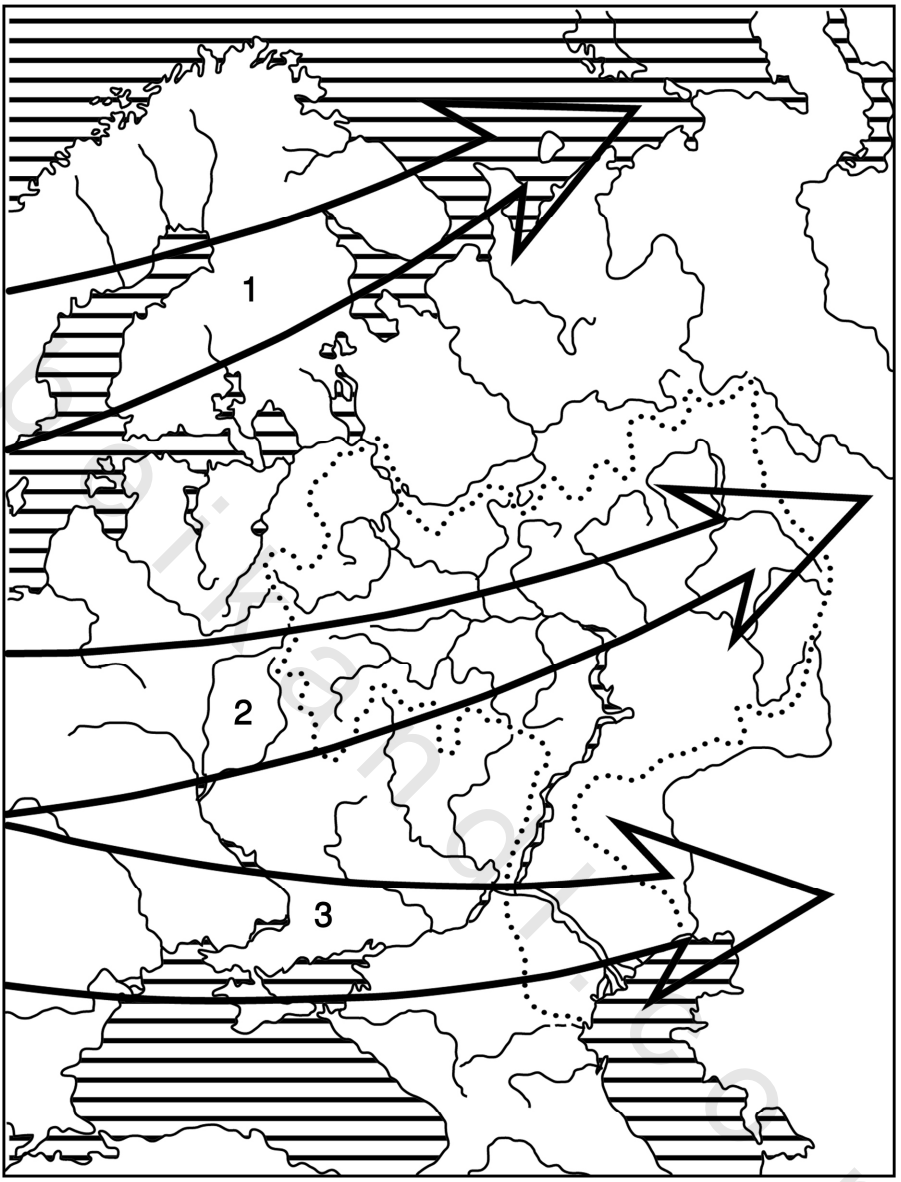

أماكن توضع مراكز تأثير المنخفضات الجوية في أوروبا

1- الشمالي. 2- المتوسط 3- الجنوبي

حدود حوض الفولغا معلمة بالنقاط

وتسقط الثلوج الغزيرة شتاءً ويذوب قسم منها وتهطل أمطار خفيفة تحمل المحل والأمراض.

٣- تتزايد الفعالية الشمسية أكثر فأكثر. وتندفع المنخفضات أيضاً عبر شوتلند واسكندينافيا والبحر الأبيض وبحر كارسك، ويتحول السهب إلى صحراء وفقط بقايا المدن شبه المطمورة بالرمال توحي بفكرة أنه لم تزدهر الحضارة هنا في وقت من الأوقات، وتنغرز حرور من السهب الجاف في المنطقة الغابية وتطمر تخومها الجنوبية بالتراب ويضحل الفولغا من جديد ويرجع بحر قزوين إلى شاطئه تاركاً على القاع الجاف طبقة من الطين الأسود الغروي، وفي الشمال يذوب جليد البحر الأبيض وبارنتس وحتى بحر كارسك وترتفع الأبخرة منها وتحجب الشمس عن الأرض وتصبح باردة رطبة وغير مريحة. وتتراجع في العمق أرض الجليد الأبدي وتجر وراءها المياه إلى الأرض التي زال تجمدها من بحيرات غابات التوندرا وتضحل البحيرات وتموت الأسماك فيها وفي التوندرا كما في السهب يحل الجوع.

فما طول دورات مراحل الترطب الأعظمي؟ - هذا هو السؤال الذي يجب الإجابة عنه. ولأجل ذلك من الضروري العثور على ذلك الوسط الذي يتأثر أولاً بشكل حاد بتغير الطقس والحصول ثانياً على معطيات مرتبة زمنياً فالشرط الأول يلبي المحيط الحيوي فعندما تترطب الصحراء تزحف نحو السهب وتنقلب سفوح الجبال في الشمس الحارقة إلى أرض خواء وهذه الظاهرة واضحة جيداً في الفرج بين مناطق أديمات الأرض: على حدود السهوب والصحارى والتايغا والسهوب والتوندرا والتايغا، وإن تحديد وجودها كان سهلاً وتواليها ممكناً ولكن كان من غير الممكن الحصول على تواريخ دقيقة من أي مكان.

وفي الوقت نفسه اقترحت على صديقتي من وجهة النظر هذه البحث في تاريخ الشعوب الرحل فهم يعيشون اقتصاداً عينياً استثنائياً على حساب الطبيعة، فالأغنام والخيول تتغذى بالأعشاب التي تتوقف كميتها على الأمطار الساقطة. وبما أن تعداد القطعان يحدد ثروة وقدرة الرحل فتواريخ ازدهار الدول الرحلية معروفة خلال ألفي عام ونحن نستطيع بالتفكير بطريقة عكسية استعادة الظروف الطبيعية للعهود الماضية، وجلسنا الليل بطوله من أجل صياغة الجداول التقويمية وحملنا عليها عهود ازدهار وانحطاط دول السهب العظيم الرحلية، وقبيل الصباح حصلنا على أول نسخة لتبدل الظروف المناخية بالدقة التي ساوى عندها التفاوت ٥٠ عاماً تقريباً، وظهر أن مدة الدورات المناخية تقدر من قرنين إلى خمسة قرون.

ولكن أيّ أهمية كانت لهذا التصور العلمي المناخي بالنسبة لمهمة تاريخية بحتة وهي التنقيب عن خازاريا القديمة؟ إنها أهمية حاسمة! لأنه إذا كانت الكسرة الفخارية التي من الزمن الخزري مغطاة بالرواسب فذلك يعني أن الزيادة العاصفة لخزان الفولغا وبالتالي ارتفاع مستوى بحر قزوين قد حدثا أكثر تأخراً بعد فناء الخاقانية الخزرية ويعني أن (صفحة) أديم الأرض عند أسافل مجرى نهر الفولغا كان مختلفاً ويجب البحث عن الآثار الخزرية ليس في الضفاف العالية وإنما في

الأراضي التي تغمرها مياه الفيضان ودلتا الفولغا. فهناك لم يبحث أحد عن الخزر لأنه اعتبر أن حياة الناس في الأماكن المنخفضة المعرضة للفيضانات عند ارتفاع مستوى قزوين كانت غير ممكنة. واعتمد علماء التاريخ على أن مستوى قزوين ينخفض باستمرار وبالتالي كان في القرن السادس الميلادي أعلى بكثير من القرن العشرين ونصحني ف. ن. ابروسوف بالحصول بكل الجهود على رحلة إلى الدلتا لأن هناك تقع ما تسمى تلال بائيرو (سميت على شرف أول من وصفها العالم الروسي الكبير في العلوم الطبيعية كارل بائير) التي لم تغمر بالمياه عند أي ارتفاع لبحر قزوين في الزمن الأخير. فماذا وراء تلك الأكمات أنا ما عرفت بعد في ذلك الوقت ولكن عملاً بالنصيحة ذهبت إلى الجمعية الجغرافية لمحاضرة عن منشأ تلال بائيرو وتعرفت هناك إلى المحاضر الجيولوجي أ. أ. أليكسين وهذا اللقاء حدد مصير المسألة الخزرية .

المحادثة الثالثة (مع أ. أ. أليكسين)

كان أ. أ. أليكسين مهندس تعدين خبيراً وحلم كل هذه السنين بالعمل العلمي وفي النهاية صار رئيس مفرزة البعثة الجيولوجية لأكاديمية العلوم، ونقب عن الطبقات التكتونية الحديثة الحاملة للنفط في السهوب بالقرب من بحر قزوين وكان محظوظاً تماماً وجعلته الاكتشافات العلمية شغوفاً أما موهبة الملاحظة الطبيعية وخبرة الأعمال الميدانية فقد أمنت نجاح تنقيباته ولكنه مثل ف. ن. ابروسوف أيضاً لم تكفه المعطيات التقويمية الدقيقة لتحديد سرعة العمليات الجيولوجية، وكذلك تمسك بإمكانية الحصول عليها بواسطة العلماء الأثريين. وتجول في الصيف المنصرم في القسم الأكبر من دلتا الفولغا والسهوب حول شواطئ القزوين. وحدثني عن التلال على ضفاف مجاري الدلتا وعن النيران التي تشتعل فوق القبور المتروكة في السهب غير المأهول[1].

وعن اللقى الهياكل العظمية في حواف الضفاف وقطع الأواني القديمة المكسورة التي لم يعتبرها جديرة بالاهتمام ولكني اهتممت لها أكثر من أي شيء.

واتفقنا على القيام بطريق مشترك وبتعبير أدق اقترح علي القيام بالتجوال بسيارات الجيولوجيين الملائمة للقيام بالمراقبة والاجتماعات واتفقنا على كتاب العمل بصورة مشتركة عندما تصبح نتائج التنقيب في أيدينا ولم يتردد أ. أ. أليكسين بذلك أما أنا فأملت أن لا أخاطر بالمصير.

١- اتضح أن ذلك هو مقابر للملالي المسلمين عند مخارج الغازات الجوفية التي أشعلها المتديّنون الكازاخيون. فالكتابات المكتوبة على القبور بحروف عربية دقيقة أعطت التاريخ الدقيق - وهو بداية القرن العشرين الميلادي.

وكان من الضروري أيضاً إقناع الرؤساء وذلك لم يكن وذلك لأن بعثة العام الفائت اعتبرت بمثابة الفاشلة ولكن م. إ. ارتامونوف استمع إلى آرائي[1] وهز رأسه الأشيب وأعطاني مهمة شهرين في منطقة استراخان.

obeikandl.com

٢- وأنا قلت التالي: «يا ميخائيل إيلاريونوفيتش عندما نقب شليمان عن طروادة استناداً إلى كتابات هوميروس كان على الطريق الصحيح ولكن كان لديه مصدر وافٍ وموثوق بغض النظر عن أنه مكتوب بالوزن السداسي وليس له تقليد رمزي أكاديمي متبع، أما نحن فماذا تحت تصرفنا - فقط لدينا كدسة من الإشارات المتناقضة التي يملك القسم الكبير منها مظهراً جدياً للغاية ولكنه يبدو عند المعاينة المباشرة أنه أقاويل متداولة ونمائم قديمة بشكل يليق بتلك الأيام، فاسمحوا ببدء التنقيب من جديد من الطرف الآخر بتطويق خازاريا من جميع الجهات وسنضيق حلقة التطويق ما دامت الغنيمة لم تقع في أيدينا، ولا ضرورة للبعثات المكلفة اسمحوا لي بواحدة مع دفتر يوميات وبوصلة، وفي النهاية نقرر أن الفرضيات تتحقق أحياناً».